اهداء
إلى المبدع الكبير/ حاتم عبدالهادي
لعلك ترضى
محمود
٠٥٥٢٨٤-٦٢٨

ليست كغيرها

قصص

محمود الديداموني



أسسها :
د. حسين على محمد
أبريل ١٩٨٠

المراسلات : ديرب نجم - شرقية - د. حسين علي محمد

إهداء

إلى الحلم الذى تحقَّق فجعل حياتى ربيعا دائما

الى البسمة الهادئة فى الزمن الصعب

ابنتى / عبير

أمنى لك أياما أجمل من أيامنا

محمود



حصـــار

رمقنى بنظراتـه السـاخرة .. أحسسـت بـالعجز .. تركـت المكـان مصراً على التوقف.. فعلت.. لم تتغير نظراتـه .. ازداد احساسـى بالعجز .. انسحبت إلى نفسى .. قررت مواجهتة. سالتة:

- أجاهز أنت؟

- نعم !

- أأنتهى ؟
- نعم !
- لاأريد احراجاً
- توكل على الله !

عاودت البحث .. كلما وقعت عيناى على مايناسبنى أخبره .. يوافق دائماً .. اتخذ إجراءاتى .. تبوء كلها بالفشل .. أعود إليه أخبره بماكان .. تتعالى ضحكاته .. يتخللها : أحسست أن ذلك سيحدث .. ثم ما يلبث أن يرمقنى بنظراته الساخره ..

رغم إحساسى المرير الذى دفعنى لتقديم بعض التنازلات .. لم أتوان فى البحث .. لم يتغير الأمر .. صارت داخلى التساؤلات والهواجس .. ألهذا الحد ؟ هل العيب فى حقاً ؟ لابد من وقفه .. لابد .. اهتديت إلى الفكرة " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان " لم اخبر أحداً .. تحركت .. تقدمت .. شعرت لأول مرة بالسعادةعندما رحب بى الرجل .. لكنه يحتاج بعض الوقت للرد النهائى .. خرجت أحلق فى الفضاء .. أحسست به رحباً .. وصلت إلى البيت متأخراً وجدته ينتظرنى .. لم تخف عيناى سعادتى.. أحسست فى عينيه شيئاً .. تغاضيت .. راوغنى فى

الحديث .. راوغته .. انسحبت إلى النوم .. انتظرت خيط الفجر على مضض .. وعندما أقبل الصباح أخذت أبحث عن أنفاسه فى المكان فلم أجد له أثراً .

تأهبت لمعرفة الرد .بينما أقترب من المكان المقصود أشم رائحة أنفاسه تملأ المكان .. رجعت وقد تملكنى العجز !

درت فى دائرتى المفرغة .. أفتش عن رفيقتى .. وكلما كانت لحظة اللقاء .. كان الوداع .. لم أفطن لسطوة الوداع إلا مؤخراً .. انكفأت على قراءة عقلى .. وجدته مشتتاً .. تفصل بين أجزائى شقوق .. كأنها الأنهار الجافة .. حاولت ردم الشقوق.. كلما زادت محاولاتى اتسعت الشقوق .. ومع كل محاولة أشعر بالعجز !

قوة داخلية تدفعنى للمقاومة .. تصرخ فى .. كرر المحاولة .. تصل المسافةبين الأجزاء مداها .. أدقق النظر .. أجد الأجزاء مربوطة إلى خيط يشدها .. تزداد الشقوق عمقاً واتساعاً ..أستمر فى محاولاتى .. الخيوط لم تعد تحتمل لكنها مازالت متماسكة .. أتحسس ممسك طرف الخيط الآخر .. غير محدد المعالم .. شئ يدفعنى لمعرفته .. أقرر الانتهاء من الأمر برمته

.. لكن كيف ؟ ثمة صراع داخلى يقتلنى .. شئ ما دفعنى للخروج .. تحدثت .. بدأت الخيوط تتمزق شيئاً فشيئاً .. أحسست حطاماً زلزل أركانى لم أفق منه حتى رجعت بها ممسكة بيدى ترتدى فستانها الأبيض الشفاف المزركش .. درت أبحث فى أنحاء الدار لأخبره بما كان .. تحسست رائحتة .. تلاشت .. لم يعد لها أثر .. فتحت باب الدار .. تراءى لى على البعد شبحاً يحاول اقتحام أحد البيوت !

سرب عرضى

الجو الملتهب ، جعله لأول مره ينسحب إلى البحر يلقى خلفه الأدوية المهدئة ، انطلق مغادراً مظلته المهترئة ، تحدث مع صاحب المظلات ، استسلم لظرفه ، أبدله غيرها لائقة ، تحايل المالك فى اقتناص لحظات الفكاهة معه .. أخذ منه كل ماأراده سوى ..

كان يتابعه ، يتحين لحظات فراغه ،وجده يحملق في فضاء البحر ، انسحب إلى عمله .. مازال صاحبه الجديد مشتت النظرات فتارة ينظر إلى الشاطئ في حالة كر وفر ، تتشابه الوجوه ، الأجساد متلاحمة ، شبه عارية ، يتسابقون ، البهجة الباهتة تعلو الوجوه ، مص شفتيه ، راح يبوح .. يتساءل أليس من حقنا أن نغضب ؟ ثم متهكماً .. كلا .. فهم على صواب دائماً .. دائماً ..

كان أصبعه الكبير بقدمه اليسرى ، ينخر بعصبية في الشاطئ متفاعلاً مع هيجانه وثورته، عاود النظر إلى الوجوه ، استوقفه وجه شاحب لامرأة تنظر بعينين مرجوجتين في كل الاتجاهات ولاتتبينان على شئ ، تستنجد بمسئول أمن الشاطئ .. طمأنها ، وعدها بالمساعدة ، انصرفت وعيناها تلتحفان بالأمل بينما أخرج الشرطي لسانه قائلاً : كل واحد يخلى باله من عياله .

ازدادت عصبية قدمه اليسرى ، وراحت تنخر بشدة ، التفت حوله ، تزايد عدد الواقفين بجواره ، حملق في البحر ، وراح يتقدمهم .. متمتماً .. حتى التوقيع على أوراق وجودى لم يعد يجدِ ، عذراً ياأمى .. أعلم أنك تتمزقين من داخلك .. كما أتمزق

.. سأقاوم ، هذا حقى .. لن أتركه ، ولكن ماحيلتى ؟ الهجرة..
نعم الهجرة .. سأهاجر ، على الرغم من رفضك .. سامحينى ..
هناك لن أكون وحدى .. سيكون معى صابر وصبرى وغريب..
تعرفينهم .

عاود النظر خلفه .. الشاطئ يتلاشى ، يحجبه سرب عرضى
ينخر خلفه ، أسرع ينخر بقدميه يشيح بوجهه يمنة ويسرة ..
مازال يتمتم .. المهدئات .. نظر إلى الوراء ..السرب العرضى
يقترب ، نظر إلى قرص الشمس عندما داعب موج البحر ، يمتزج
به .. يتلاشى معه ويمتزج به بينما كانت صافرات الإنذار قد
ملأت فضاء الشاطئ الخالى تماماً إلا من رجال الإنقاذ .

شتلات

الريح تدفع ببطء بوابات السكون ، حيث أتوارى خلفها ، وفى عقلى تنام شتلات الأيام الباردة ، تنمو داخلى عندما تشتد الريح ، تتماس والبوابات فى هدوء ، تلتصق بها ، تدفعها ، تحكم غلقها ، فأعود إلى سابق عهدى .

الريح تلهو ، يتعالى صوتها ، يصفح وجه البوابات ، يتسلل إلى أذنى ، ينتزعنى من سكونى أدس قطعة القطن فى أذنى وأعاود كهفى .

لم يكن أبى أقل إعراضاً منى فى التعامل مع الريح ، كلماته تنمو داخلى ، تروى شتلاتى تتشابك ، تحدث ظلاً يراوغ أطماع الريح.

لقد زرع أبى داخل عقلى كل مازرعه جدى فى عقله ، الأشجار تكاثفت وتلاحمت وتكاتفت فى وجه الريح .

الريح تقترب من العاصفة .. تنتزع بعض النوافذ ، تهاجم نافذتى .. تحدث ضجيجاً ، تنتاب عقلى نوبه هيستيرية .. تتسلل العاصفة إلى أذنى .. تلفحهما .. أتحسس جبهتى ، مشتعلة ، تطال شتلاتى ، تشتعل الأيام الباردة فى عقلى : أقاومها وسط العاصفة يرمقنى أبى ، يقفز نحوى .. تدفعه بعنف .. يحاول جذبى .. هذه المره كانت قاسية .. مددت إليه يدى لأجذبه .. تشابكت الأيدى .. علم مقصدى.. نهرنى محاولاً جذبى .. رفضت العودة مندمجاً وسط العاصفة ، نظر خلفه .. بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة متراجعاً عن صيرورة جذبى .

ليتــك

دخـل مـثقلاً بالتعـب ، لم يكـترث بشـئ ، عمـد إلى غرفـة نومـه الفوضوية ، خلع حذاءه ، رمى شطره فـى جهـة والأخـر فـى جهـة أخرى ، فك قميصه ، استلقى على ظهره ، فوق سـريره المتواضع أغمض عينيه ، تاهت منهما ذكرى يومـه ، داعبهمـا النعـاس ، تهـادت إليهمـا أطيـاف لم يعرفهـا ، ارتسـمت علـى وجهـه ابتسامة، استعذب الأطياف ، بدا وكأنه يحلق بجناحيه يتنقل بـين أغصان الرياض يستنشق عبيره .. استشعرها الجنة .

- نعم هى الجنة

اتسعت ابتسامته ، اكتسبت صوتاً ، سمع صداه ، حدث نفسه:

دعك من هذا الصوت .. امرحى فى جنتك ،

وصل الصوت حد القهقهة ، تساءل وهل بالجنة صخب ؟

تناسى ، تعالت الضحكات ، لام نفسه وعنفها وحذرها .

عاود النوم ليستكمل تحليقه ، غط فى نومه ، تداعت هذه المره أشباح تتلكأ أمام عينيه ، تصارعه ، تحاول معه بطريقة غير معقولة .

حاول مرة بعد مرة والصرخة تختنق ، تعاطفت معه دمعة تبعتها دمعات لسعت وجنتيه ، قفز باحثاً عن نفسه ، سألها أين كنت ؟ أين صرخاتك كما كانت قهقهاتك ؟

أجابت :

- ألم تطلب بأن أكون حذره ؟

ألا أتعجل ، نعم لقد رأيتك .. لكننى تريثت فلعل مارأيت يمثل لك شيئاً .

ملاحقة

لم يكن الأمر سهلاً ، عندما قررت ملاحقتها ، الأعين هنا وهناك لم تكف عن ملاحقتي ، يقرأون في عيني كل عبارات الشوق والوجد ، انتشى لرؤيتها ، أغمض عيني عليها ، أشعر بسخونة تلسع قلبي ، وأروح في غيبوبة عميقة ٠

فطن أبى إلى خطورة الموقف ، تحرك سريعاً ،دلك جبهتى وأطرافى أفقت إليها ، كانت الغمامة قد استحكمت من وجهها ، انتفضت دافعاً يديه بعيداً .. الغمامات تنفرج وهى الأخرى ترتفع فى السماء .. وأنا مازلت واقفاً على الأرض شاخصاً .

لم أشعر بالوقت .. فقط أشعر بحركة المكان ، تسرب الحزن إلى أعماقى حين علمت المسافة بين السماء والأرض ، طاحونة الأفكار تحاول توفيق لقاء بينهما ·

الناس يعتبرونها من المستحيلات .. دائماً يقولون : لما تنطبق السماء على الأرض .. أعاود النظر إليها .. تصهرنى .. أتوارى خلف نسيم الرغبة وأبى على البعد يجتث جذورها .. أشعر بها رغم المسافة ، تصرخ .. تشتعل ، تكوى الجباه .. وتلفح الوجوه تقاوم بشدة .. ترمقنى بنظراتها الحانية أستمد قوتى منها وأصمد، تدنو شيئاً فشيئا ، أسعى إليها بكل قوة ، عين أبى والأعين الأخرى يترقبون .. بدأت أشعر بالوقت .. أتقدم بينما تدنو .. تهبط خلف حديقة الباشا قطعا حمراء متناثرة ، أحتضنتها بقوة ، أحاول تضميد جراحها المتفتحة ، تمسح على رأسى .. تذوب سريعاً ، تندمج فى رحم الأرض ·

حمى الطريق

عندما انتصف الليل ألقيت أخر زفرة حزينة فى النيل ، وعدت إلى الفندق حاملاً معى حلماً مبللاً برحيق الحياة ، الليل فى هذه المدينة مثير حقاً .. تلك الخطوات التى قطعتها إلى الفندق تموج بالحركة والهسهسات ، الثنائيات هى الطابع المميز ٠

لم أنشغل كثيراً ، وكيف ذلك ، والنوم يراوغنى بقوة .. بعد يوم طويل احتضننى السرير ، تركت نفسى للنوم- لم أستطع ٠

حاولت الخروج من ملابسى لم أستطع .. أغمضت عينى ورحت أعانق ليل النيل ٠

أفقت على دقات رقيقة جاءت من ناحية الباب ، عدلت من هيئتى .. من ؟

أنا ..

صوت نسائى يغزو أذنى ..

من أنت ؟

رفيقة الحجرة ..

بل هو رفيق ياسيدتى ..

بل أنا ..

إن رفيقى علمت أنه يدعى عصمت ماهر ..

وأنا عصمت ماهر – افتح قالتها (بحزم) ..

أصابنى الارتباك ، فتحت لها ، أخذت طريقها إلى السرير الآخر .

قالت وبحزم أيضاً : أتمنى أن يكون الحمَّام خالياً .

أومأت لها – فلا تزال الدهشة تسيطر على ملامحى ، دارت التساؤلات أركان عقلى المبعثر ، كيف ذلك ؟

ابتسمت قليلاً تذكرت فيلماً حوى نفس الموقف .

قطعت كلمات أمى هذه اللحظة : إياك من بنات مصر ضحكت بمرارة : آه لورأتهن أمى هل كانت تقول ذلك ؟

الصوت الرقيق يغازل قطرات الماء .. أتسمع مندهشاً – أعطيتها ظهرى وهى خارجة من الحمام .

قالت فى جرأة : أما زلت عند هذه النقطة ؟

أية نقطة ؟

الرجل والمرأة تلك العلاقة المحسوبة بينهما ..

هذا مايجب أن يكون

هذا منطق شهوانى بحت

لب العلاقة بين الرجل والمرأة هو الشهوة

أعتقد أن مثقفاً مثلك يجب أن يكون قد تعدى هذه المرحلة .

القضية محسومة منذ القدم ، وليس من اليوم .. كما أنها لاتستوجب مراحل للتفكير

راديكالى

ياسيدتى إن خير دليل على ذلك يبدأ عند قابيل وهابيل وأختيهما

هذا أمر يتعلق بكم أيها الرجال

كيف والغواية عندكن ؟

المرأة سكن وأساس العلاقة هى المودة والرحمة

هذه علاقة الأزواج

وقد أغتصبت الزوج حق زوجته

لعنة الله على تلك الأفواه المغرضة

لم تحيى إلا الذى أمتموه

أصبحت تحيى وتميت .. أعوذ بالله .. أعوذ بالله لاتحوّر حديثى لما ليس له .

التفت إليها مغتاظاً .. وقبل أن أطلق كلمتى فى فضاء الحجرة تعلقت عيناى بوجهها الذى عانق البدر .. ظللت مشدوها .. مشدوداً إليه خرجت كلمتى متقطعة ...... وال.... خل .. وة.

أحسست بدوار شديد فى رأسى . جسدى يلتهب ، تتنفض عروقى .. تتبدل ملامح وجهى .. تحركت نحوى بانسيابية الغزال ، ازددت اشتعالاً مدت يدها إلى حقيبتها ، أخرجت شريطاً ناولتنى حبه منه ، قادتنى إلى سريرى أحسست بارتجافة جسدى لفتنى فى بطانية ثقيلة .. أخذنى النوم .

خرجنا نشق الطريق إلى النيل ، وفى غفلة منها رمقت زفرتى التى أخذها النيل كانت قد غابت بين براثن الشبورة البيضاء .

أطلقت نفسى للحياة .. استوقفنى ذلك الواقف يراقب فى نهم استقبال الطريق لثنائى جديد ، فيلقى بزفرته ويمد الخطى متجهاً نحو الفندق .

الصفصافة

عندما اتخذت قرارك ، ساعتها فقط ، أحسست بدوار رهيب يلف رأسى وبأن سياجاً حديدياً ألقيته حول جسدى ، لم أفهم لماذا اتخذت هذا القرار ، سنوات مضت ، وكلماتك لاتفارقنى .. علمتنى أن الحياة ماهى إلا عاشق ومعشوق غذيتنى من شهد ثغرك ، فصرت أحلق معك نحو سحب الخيال .. أدركت أن الحياة لم تعد لتعطينى ظهرها ..

كنا نسافر سوياً فى ظلام الليل نبدد حلكته ونستضيف البدر ليشهد عرسنا .. تحتوينى كل ليلة بين ذراعيك .. أنام على صدرك ، .. هناك .. حيث ينقطع الطريق ، .. لم أشعر بالأمن إلا فى رحابك ، ولم تشعر بالسعادة إلا عندما أقبل ، .. نعم .. كنت أحس بارتعاشة جسدك النحيل وأقرأ فى عينيك عبارات الوجد .

لحظاتك الساكنة فقط هى التى كانت تثير اهتمامى ، كنت تعيدنى بها إلى عالمى الكئيب .. أنت تعرفه جيداً .. لم أكن لأشك فيك ، لم أشأ لأقتحم لحظاتك .. سوف تخبرنى .. نعم .. فأنا لا أخف شيئاً عنك .

صفصافة نعمات كانت شاهداً على ميلادك فى روحى .. أتذكر ذلك اليوم .. كنت قد قررت الهروب من طغيان زوجة أبى .. لم أستطع تحملها أكثر من ذلك .. كنت أنت هناك تصطاد فى مياه الترع .. لم ألتفت إليك .. بينما خرجت تحمل بعض السمك .. ألقيته بين يدى .. رفعت طرف عينى إليك مستنكرة ..

ابتسمت ، ثم أطلقت كلمة كأنك تقرأ ما بداخلى : لاشئ فى هذه يستحق الحزن هيا .. هيا .. ادع لى ..

ساعتها أدركت أننى إذا هربت سأخسرك .. فعدت أتحمل لسان زوجة أبى الذى تعودته ..

كنت مجنوناً وأنا أطيعك .. واعدتنى فى كل أوقات اليوم.. ساعة بساعة حتى فى ساعات الليل المتأخرة وقبيل الفجر ووقت الفجر .. كنت تريد أن يكون الزمان شاهداً علينا .. لكنك تقيدت بمكان واحد .. هناك حيث ينقطع الطريق تحت صفصافة نعمات .. كنت تحبها مثلى .. كانت فروعها تتدلى خضراء تنبض بالحياة ، يسمونها صفصافة شعر البنات .. تتموج مع الريح تعزف نغمات فريدة .. كانت ألحانها تستثيرنا .. فنغنى ونطلق أغنياتنا للريح ، ترددها العصافير وأسراب الحمام وفراخ الغيط .

أذهب كل يوم إلى نفس المكان .. أشعر باختلاف كبير ، لايقلل منه إلا تلك الذكريات .. تتناوب على عقلى لحظاتنا ، .. أحس بمرارة تلف حلقى .. أذوبها داخلى وأعود ..

لم يعد المكان يثيرنى .. يتساوى الليل والنهار فى عينى كلاهما .. يمر بطيئاً ثقيلاً .. جاراتى يتناوبن على زيارتى .. يثرثرن فى كل شئ .. أشعر بالحسد يمرح فى عيونهن .. أبتسم رغماً منى

.. وأعطيهن أذنى .. أكاد لا أفهم شيئاً مما يقلن .. فقط أعطيهن أذنى وأمارس شرودى ..

الآن وبعد كل تلك السنوات .. تشوهت الذكريات .. ماعادت تكفى .. كلما أرسلت لى شيكاً .. تختلط الذكريات ، وأحس بأننى مازلت فى دائرتك أمضغ آلامى وتحملنى قدماى إلى صفصافاتنا العتيقة .. نعم .. أصبحت عتيقة .. ضرب السوس جذعها المائل .. حاولت تثبيتها على قائم .. أعتقد أنه لن يتحمل كثيراً .. فقط .. كل مايربطنى بك منذ قرارك تلك الوريقات ..

عندما تفكر فى العودة ستجدها معلقة هناك فى أعلى شجرة الصفصاف ، عد بسرعة فقد سمعت أنها على وشك الرحيل ..

وعندما تعود لاتحاول البحث عنى فهذه المرة قد صممت على قرارى .. ولم تعد لشجرة الصفصاف ظل .

ليست كغيرها

(1)

كالعادة أصحو مرغماً ، ألوك لقمة فى فمى وأخرج حيث يريد أبى .. لاأفهم شيئاً مما أفعل .. لكن أبى يقول أننى أفضل من أقرانى .. تمر الكلمة باردة على أذنى وأمارس خضوعى .. يزجرنى عندما يجدنى ممسكاً بسيجارة فى يدى وتكاد شفتى تأكلها أكلاً .. أنظر إليه وأنسحب مبتعداً أنفث دخانها فى فضاء حجرتى العفنة تستحيل سحباً أتمدد فوق سريرى الضيق ناظراً إلى لفائف الدخان التى صنعتها .. أتخدر وأنام .. أصحو على همسات المارة .. أنسحب خارجاً من غرفتى .. يصطدم

صوت الشيشة بأذنى خارجاً من حجرة أبى، أخرج فى هدوء أطلق جسدى فى فضاء الليل أمرر شريط حياتى فى حيز البدر الذى كساه ، ..

كنت أنت الملاذ الذى ألجأ إليه دائماً .. أثرثر له ، أشعر بالحياة عندما أجدك منصتاً .. أحاكيك ساعة أو ساعتين .. لاتمل حديثى .. لست كأبى ..

كالعادة لايقطع علينا لحظتنا سوى صوت القارئ قبيل الفجر ، أسرع بالعودة ، أدخل كلص محترف وأدس جسدى تحت الغطاء أنتظر نداء أبى الصاخب ..

(2)

سنوات مضت وأنا لازلت عاجزاً عن معرفة النقود ، أعتمد فى ذلك على أخى الصغير الذى يمدنى بالسجائر ، أشعر أنه يبتزنى .. لكننى أحتاجه .. أخضع لطلباته .. أشعر بالسعادة عندما أمره بإحضار سجائرى .. يمد يده إلى وفى عينيه يسكن مكر خبيث .. لاأهتم .. وأظل فى سعادتى .. سرعان ما تمتد يد أبى آخذة كل شئ .. أستوقفه .. يربت على كتفى .. يعطى أخى

بعض النقود ويدس الآخر فى جيبه ويخرج مبتسماً يتطاير الغضب من عينى أخى وأظل أنا فى سعادتى..

(3)

لابد أننى خضعت لكل أوامر أبى حتى يكلفنى بكل تلك الأعمال دون أقرانى أدرك تماماً أننى أتقن عملى .. أصحو مرغماً .. ألوك لقمة فى فمى ، أسحب بقراتى وأظل بالحقل حتى غروب الشمس ، ألفت أصوات الحيوانات هى الوحيدة التى تخضع لأوامرى .. لا إنها كأخى .. بينهما تشابه كبير كلاهما يبتزنى ليطيعنى ..
أنا الوحيد فى هذا البيت الذى يخضع دون أن يبتز أحداً .. لماذا أنا غيرهم ؟ يبدو أننى كما يقولون ......

(4)

عندما أنظر إليك تأخذنى بعيداً جداً ، أستلهم منك الحلول .. أنصت إلى عينيك .. أقرأ فيهما كل شئ .. صرت تعرف عنى كل شئ ، وصرت أنا الآخر أقرأ فى عينيك كل شئ .. نعم .. أقرأ .. فلست أمياً كما يزعم أبى ..

(5)

الليلة ليست كغيرها ، لن أخضع هذه المرة لأوامر أبى ، لابد أن أذهب إلى المولد تمردت على أبى ، صفعنى ، لم أهتم ، ضربنى بقوة ، صممت على الخروج هرول خلفى .. كنت قد أطلقت جسدى مع الريح ..

نظرت إليك ، لم أعهدك بهذا الشحوب قبلاً ، أخذتك معى إلى المولد ، لم يتغير لونك ، إنما تزداد شحوباً .. أقرأ فى عينيك هموماً ثقيلة ..

أشعر أنك لم تعد تستطيع الإنصات .. هيا تحدث .. انفض عنك همومك وأنا سأنصت إليك .. لاتهتم فالمولد ، ليس لى به طاقة .. أنت تعرف أننى تمردت على الأوامر فقط ، .. عذراً ياصديقى فقد تعودت الحديث إليك .. هيا .. تحدث .. أنا أسمعك ..

يبدو أنها " الحمى " .. لاتتحرك .. سأنقذك ياصديقى مما أنت فيه .. أمسكت غطاءين للأوانى فى كلتا يدى ورحت أخبطهما ببعضهما قائلاً فى جميع أرجاء المولد .. ياسيدنا عمر .. فك خنقة القمر ياسيدنا عمر .. فك خنقة القمر

من ثقب الباب

فتة قبيل الفجر... تعودت أذناى هذه الهسهسات أخذت الأصوات تتداخل على أذنى ، تتعالى يوماً بعد يوم ، الحركة لاتكف ، تقترب منى ، يأخذنى سلطان النوم إلى سردابه ، أحسست بجسم يمر فوق وجهى ، صرخت ، صحت جدتى ، أسرعت لإضاءة المصباح ، احتوتنى ، حتى غلبنى النعاس ٠

الطعام يتناقص ، حيث تحتفظ جدتى ببعضه حتى إذا صحوت تقدمه لى أحسست بالتساؤلات تملأ عينيها ، راحت تبحث فى أرجاء الغرفة .. دون جدوى انسحبت إلى غرفة أبى ، قصصت عليه الأمر .. قالت أمى :ماتشغلش بالك،كابوس،صلى قبل النوم.

هز أبى رأسه موافقاً ثم زاد فى فكاهه : قل لجدتك تغطيك كويس .. لم أجد أفضل من الانسحاب إلى أحضان جدتى كالعادة.

قررت وجدتى دونما اتفاق مسبق على معرفة المصدر ..وبينما نسمع أنفاسه ، تسرع جدتى ، تضئ المصباح ، رأيناه شيئاً صغيراً يسارع بالهروب .

ضحكت جدتى ، بينما تملكنى الخوف ، لكنه سرعان ماذاب فى أحضانها ..

إذن .. نترك المصباح مضاءً .. لم نره ملياً .. عاود حركته رغم الضوء رأيناه يتجول داخل الغرفة يبحث عن شئ .. عيناه تدوران فى كل الاتجاهات .. عاود وقد تملكه الغيظ .

ضحكت وجدتى ، فقد فطنت جدتى إلى هدفه الذى يبحث عنه فخبأته فى مكان آمن قفز على سجادة الصلاة يدور حول نفسه،

همت إليه جدتى ، لم يتحرك داعبت جدتى خصلات شعرى
وتنهدت قائلةً : لازم تنام ، قلت : وأنت ٠
قالت (نام أنت .. ماينامش جعان)
نعست جدتى من التعب ، أفقت لفزعها ، رأيته ممسكاً بأحد
أطرافها يقضمه .. مدت يدها تقاومه ، تركها ، تنزف .. تتألم ٠
صرخت .. وانسحبت إلى ركن السرير متقوقعاً على نفسى ..
الكلمات تخرج من حلقى بالكاد
جدتى لازم نشترى مصيدة
لا
نشترى سم
لا
ماالعمل ؟
لاتشغل بالك ٠
ترد وهى تجفف إصبعها من دمائه .. أحسست أنها عازمة على
شئ .. أخبرت أبى وأمى ، حاولا إقناعها بالعلاج .. أصرت على
بساطته ، خافا علىَّ .. أخذانى إلى حجرة أخوتى ، حاولت
الرفض، لكنهما أصرا ، شعرت بالخجل والحزن وأنا أتخلى عنها ٠

المرض جعل جدتى تلازم الفراش ، والصوت المنبعث من الغرفة مستمر ، الأدعية والأوراد والصوت الآخر يختلط بهما ..

أبى وأخوتى مشغولون بمشاهدة مباراة كرة القدم ، بينما أمى تتحدث تليفونياً أتسلل إلى غرفة جدتى أنظر من ثقب الباب ، أجده أقرب للقط منه للفأر وقد توسط المصلاة مطلقاً رجليه الأماميتين جالساً على الخلفيتين رافعاً رأسه فى إصرار عجيب، وبينما يتحرك ماراً بجوار جدتى فى عنفوانه إذا بها تمسكه من عنقه ، وتضغط عليه فيتلوى بفمه ويغمد أنيابه فى يدها ، قاومت وداومت قبضتها ، صرخت وهتفت ، بينما أحرز الفريق المنافس هدفاً ..

أسرع الجميع إلىَّ ليضربوننى .. أشرت إليهم ، فتحوا الباب وجدنا جدتى ، قد أسلمت الروح ، متهللة الوجه ، ولاتزال قابضةً على عنق الفأر .

فوضى أصوات الحيوانات

السماء أنكرت شمسها ، فبدا الصباح باهتا ، وتسلل التراخى إلى أعصاب الحياة ، والحاجة فهيمة مازالت تداعب آلتها المتهالكة " لخرج اللبن " ..

كالعادة تركن الحاجة فهيمة واثقات فى أمانتها .. وعلى غير العادة سطر الخوف من السماء على حركة الناس .. يجمعون على أن الدنيا ماحدث لها مثل هذا من قبل .. السحب السوداء الكثيفة تهيمن على مفردات الصباح .

إن هذا والله لمن العجب العجاب

نسأل الله أن لاتكون هذه " العلامات " وإلا لضعنا ورب الساعة ..الأصوات تخفت .. فيطوف السكون مترجلاً أرجاء القرية .. يكمّم أفواه الحيوانات والطيور .. حتى بيت الحاجة فهيمة لفه السكون .. فقد انتهت من عملها ورفعت وجهها إلى السماء تدعو الله ..

الوقت يمر والحاجة فهيمة مازالت تدعو وتنتظر ، غزتها الهواجس ، أطلت بوجهها جهة القرية .. البيوت مغلقة .. والحياة راكدة ..

عادت إلى نفسها .. تراوغ تساؤلاتها المتأججة ..

حالة الكر والفر هذه أثارت داخلها ضجيجاً لايهدأ ..

الصخب ينسحب إلى طرقات القرية .. فوضى أصوات الحيوانات ضرب الصمت الجاثم على قلب القرية .. والناس مازالوا

يترقبون جلاء الغيم ..

وفجأة توقف الضجيج يكاد لايسمع إلا صوت السكون

الكلاب والحمير والبهائم والديوك والحمام والغربان .. مرة واحدة ..

يبدو أنها ساعة الغضب

الملائكة حلت إلى الأرض لتطهرها .. لاحيلة لدينا .. أدع الله

لم يعد للدعاء فائدة .. فقد فات أوانه

توقفت الأصوات وتحولت إلى أنين مكبوت .. وكأن الخوف أخرسها أستوطن الصمت بخيوطه الأخطبوطية أرجاء القرية .. والحاجة فهيمة تقاومه بعنف ..

هبت مستندة على عكازها القديم تطوف شوارع القرية .. تنادى بصوتها المتهرج على صاحبات اللبن .. توكز الأبواب فى قسوة .. تسمع هسهساتهم

إن الملائكة يتشكلون فى صورتها .. يحتالون علينا

ياغبية .. هم ليسوا فى حاجة إلى ذلك .. لو أرادوا لفعلوا .

إذن من تكون ؟

أنا متأكدة أن الشياطين تلعب دورها فى هذا الوقت بالذات

أعوذ بالله .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠

هزت الحاجة فهيمة رأسها أسفاً .منسحبة بوجهها نحو بيتها ..

تـراءى لهـا حيوانـاً ضـخماً يحـاول اقتحـام بيتهـا .. صـرخت مستنجدة ..

لم يجبها أحد .. همت راكضة على عكازها .. وفى عينيها تكور الإصرار بينما كان جالساً على فوهة الباب متكئاً على خلفيتـه ، ماداً قدميه أمامه ورأسه تدور فى كل الاتجاهات ..

كانت قد أحكمت قبضتها على عكازها وبكل مالـديها مـن قـوة .. ضربته على رأسه فتضخمت .. وانسحب ثـائراً نحـو القريـة .. والعيـون السـحرية .. تراقـب وتترقـب يغزوهـا الخـوف .. أطلـق صوته يزلزل جدران الصمت .. ويطوف فى كبرياء طرقات القريـة الخربه .. وينسحب مبتعداً مطلقاً ضحكاته الساخرة .. نـاظراً إلى بيت الحاجة فهيمة ليجـدها مرتكنـة علـى عكازهـا وفـى عينيهـا إصرار البقاء ٠

ابتسامة الصباح

لقد عاشت أمه فى قلق دائم ، وران على قلبها هاجس مخيف ..
الرؤية التى رأتها تجعلها تنتفض .. تمد يديها فى حنو تحتضن
فتاها ، تمسح على رأسه ، وتقبله من كل وجهه ..

وكالعادة يمد طرف جلبابه معرياً ساقيه الصغيرتين ماسحاً دمعات كانت قد تساقطت رغماً منها .. أمسكت يديه بقوة ، وحدقت فى عينيه الجميلتين ، فارتجف جسدها عندما رأت دمعة سكنتهما ، وراحت تلملم أثار اللحظة ، منسحبة إلى حجرتها .

البوريه المائل على رأس زوجها ، والعينان الرائقتان كعينى الصقر ، والشارب الكث المبروم ، والابتسامة العريضة .. اقتحموا صمتها .. أحست بيديه تحتضن جسدها الراكد مهدهدة عليه تمسحان على خصلات شعرها المنسابة فى الهواء .. وفى قمة فرحها بالليلة ..داعبها نفس الهاجس القديم ، وتنامت أمام عينيها الرؤيا ، كانت كلمات زوجها تنساب فى أذنيها كاللحن الهادئ الجميل ، تغسل هموم الماضى ، وتعمق فى النفس سحر اللحظة ، وتبارك خطواتها فى تربية عامر وتهنئهما بالفرحة ..

لقد أدركت من كلماته جمال الحياة .. فتوحدت معها .. أحست به ينسحب عائداً إلى حيث كان معلقاً على الحائط .

تمنت أن تمر الليلة على خير ، وراحت تتمالك أمام كل تلك

العيـون التـى جـاءت ، ترسـم علـى وجههـا ابتسـامة السـعادة والرضى ، تنخرط فى المكان وتذوب فرحة فى أرجائه ، منسجمة مـع اللحظـة ، منسـحبة مـن الماضـى ، رغـم إحساسـها العميـق بالتوحد معـه متأوهـة فـى ذاتهـا ، مسـتمرة فـى لحظـة التسـامى والعلو ..صغيرها بجوار (فايزة) جميلة القرية ، ترفل فى ثوبهـا الفضفاض ، وعلى وجههـا يضـرب ورق الحلـم الجميـل بجناحيـه ، وتسكن عينيها شتلات الفرحة ..

الأصدقاء يتحلقون حولهم .. يتراقصون .. والأعين تلـتهم فـايزة إلتهامـاً .. العيـون الصـفراء تكـاثرت .. والعـين الحانيـة .. عاودتهـا الرؤيـا .. فانصـهرت ..تغيرت ملامحهـا .. وفـى تلـك اللحظة .. امتدت الأيدى الرابضة خلف حقـدها ، مختطفـة الزهـرة والعيون تراقب .. تترقب ..

أصبح عامر كالطائر المذبوح يفتش فى فضاء قلبه عن زهرتـه فـى ذهول ..

بدا الليل المظلـم ينسـحب إلى كـل اتجـاه ، يغمـر القريـة بسـطوته المستبده ، يرمق كـل تلـك العيـون فيسـد عليهـا نافـذة النـور ، ويـداعب فـى عقـل الفتـى أعتـاب النهـار .. ويشـمل تلـك الأم

المســكونة بأحزانهــا ببصــيص الأمــل ، يســكبه مــن ســكونه ، ويتحول منظور الليل المعتم إلى نقطة للإنطلاق نحو النور ·

الضحكات تمزق سكون الليل ، وصراخ فايزة المكتوم يخترق جـدار قلب عامر ، والأم تعود إلى صاحب البوريه المائل محتضـنة فتاهـا فـى ليلـة عرسـه .. يسـتلهمان منـه البدايـة ، تتوحـد العيـون وتبـدو فـى عيونهمـا مفـاتيح العـودة ، فترتسـم علـى وجهيهمـا ابتسامة القناعة والرضى ..

وفى غبشة الفجر الندى ينسحب الفتى نحـو الضحكات ، وبكـل مـاأوتى مـن عـزم .. انشـطر فـيهم مختطفـاً زهرتـه مبـدداً حلكـة الليل وسخريته وراسماً على وجه الصباح ابتسامة أبيه ·

لماذا الأن؟

مهداه إلى الإذاعى الكبير

طاهر أبو زيد

أبكيتنى أيها العجوز وأنت تتحدث إلى الجمهور عـن التضـامن .. أحسست بأن جسدى ينتفض وأنا أحاول حجب دمعـات تكـورت فى عينى ، أصرت كلماتك على اجتذابها .. فخرجت مـن البيـت مسرعاً وفى ركنه البعيد عن الأعين أطلقت لعينى العنـان كنـت أنهنه .. نعم .. بعض مره حدث لى ذلك ، لكن ليس كهذه المرة ، فى كل مرة أتغلب على عواطفى وأمارس تحكمى ، أمـا هـذه فقد أحسسـت بقطـرات عينـى تنـزل علـى صـدرى وجسـدى ، تتفـتح أجزائى .. وأشعر بانتعاشة جسدى .. لاأستطيع التحكم فى شـئ .. فقط أشعر بارتياح .. لماذا الآن ؟

فلكم حدثنى جدى عن الكثير والكثير من صور التضامن .. هو الرافد الأول الذى عرفت منه هذه الفكرة ، كان يعرف مايحكيه لأنه عايشه .. لم يكن يعرف شيئاً عن المفردات الرنانة .. فقط كان يحكى متأثراً .. أدركت عندما كبرت أن جدى كان يدرك القيمة تمام الإدراك .. لكنه أبداً ماأكترث بالمسميات رحمك الله ياجدى .. وعاودت بكائى ..

ربتت زوجتى على كتفى .. جذبتنى من يدى بعدما مسحت بطرف خمارها دموعى .. أبيت الدخول .. اجتذبتها وجلسنا سوياً ..

قلت .. أنت لاتعرفي جدى مثلى .. فقد تربيت فى حجره ،وشربت منه كل شئ، آه لو رأيته فى ذلك اليوم الذى اشتعل فيه جرن القمح .. كان يركض على عكازه الخيزرانى يحفز هذا ويوبخ ذاك .. أبصرنا جميعاً وسط الميدان ليلتها اجتمعنا حوله رجالاً وأطفالاً .. رغم الحزن الذى خيم على وجوه الجميع ، كان وجهه يلمع بالبشر وينبض بالسعادة .. جميعنا أسموه اليوم الأسود بينما أسماه جدى اليوم الأبيض .. وراح يمارس هوايته المحببة فى صب الشاى .. أصر جدى على أن تكون السهرة فى الجرن وبين

الأعواد المحترقة .. ليلتها أطلق كلمته التى لاصقت عقلى .. " لكل شئ ثمن " .. وقد يكون باهظاً ..

نعم ياجدى لقد كان باهظاً وكنت تدرك ذلك جيداً .. أنت وحدك الذى يعرف القيمة .. جميع الجالسين يسيرون على سجيتهم تحفزهم كلماتك يستمدون منها كل ليلة جلاء الصباح..

آه .. لو رأيتى جدى هذا عندما عاد من الحج .. كان محملاً بالهدايا .. نعم بسيطة لكن مامن بيت فى قريتنا إلا ويحتفظ بهديته .. قد تكون معلقة فى أحد الأركان لكن الواحد منا لو لم يبصرها يومياً يشعر بأنه يفتقد شيئاً كبيراً ..

الآن فقط .. تستطيعين تحديد الفارق ..

* * *

كان أخى منذ بضعة أيام يستصرخنى .. لم أجد ما أنقذه به .. أحسست بالعجز يسيطر على كيانى .. ساعتها لم أستطع حتى إخراج دمعة ..

كنت بعد كل تلك السنوات التى قضيتها هناك قد نسيت رائحة المكان ، اختلطت على عقلى الذكريات .. كلمات جدى

أصبحت فى سراديب عميقة ..كادت أن تتلاشى .. لولا صرخات أخى ..

كنا سوياً نلعب فى النهر ونسقى شجيراتنا الصغيرة ، نصنع أرضاً ، ونصنع من الطين جراراً يجرثها ، وساقية تسقيها .. ونعود إلى البيت وقد تحولت أثوابنا إلى قطعتين من الطين .. تهرول أمى خلفينا ، نرتمى فى حضن جدى الذى يفتح ذراعيه عن آخرهما .. يحتوينا قائلاً : مرحى .. مرحى .. تضحك أمى وتعود إلى حيث كانت .. أنا هنا .. آكل وأشرب وأستمتع بالحياة .. أنتفخت جيوبى وأصيبت بالتخمة من كثرة مابها .. أتابع الأخبار من مكانى .. تعودت هذه الحياة كثيراً ما راسلنى أخى يحذرنى بأن الأرض ستغتصب .. أهدئ من روعه وأمد يدى فى جيبى أخرج دفترى وأكتب له شيكاً .. كان يصمت ويعاود مراسلته .. حتى شعرت أنه يستنزفنى .. فماعدت أقرأ رسالاته وماعدت أخرج شيكاً من جيبى ..

آه منك أيها الرجل العجوز .. لقد نبشت بكلماتك فى بركان الذاكرة .. والآن فقط عرفت لماذا أنا أبكى الآن ؟

نعم .. الآن فقط ..

الهروب إلى المعتقل

أقسم أنه يناضل من أجل مبادئه ، وأنه فى سبيل ذلك قد يلجأ إلى الخداع ، بدت عليه علامات الصدق ، ساعتها ، أحسست أنه سيخلصنى من براثن أسرى لمعت عيناى بفرحة غامرة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة .

لأول مرة أحلم ، نعم .. إن كل محاولات الحلم كانت محاصرة .. الخوف بدد كل محاولاتى .. فقط كنت أحاول .. أما الآن .. ينطلق الحلم رغماً منى يبدد خوفى ، تواترت التساؤلات على عقلى ، هل يمكن أن يصبح الحلم حقيقة .. هل أنا فى حلم أم فى علم .. هل ... توقفت قائلاً يكفينى الحلم ..

عدت إلى نفسى .

ورأيته يحاول بكل قوة .. فرض أسلوبه على كل شئ .. الحصار ، نعم ، هكذا أخبرنى .. الآخر كالخفاش يرتطم بالجدران إذا ماشعر بالنور تلون له صديقى كالحرباء وانقض عليه ، لفظ أنفاسه الأخيرة بينما هللت ورحت أعبر عن سعادتى، اقترب منى ، راح يتحسسنى قبلته وشكرته ..

رأيت شيئاً فى عينيه .. تغاضيت ، أخبرته أنه حقق حلمى الكبير .

عقب قائلاً :

- وحلمى أيضاً

تملكتنى الدهشة .. شعر بذلك فقال : ألم أقل أننى أناضل من أجل المبادئ ..

ابتسمت له ابتسامة باهتة .. بينما كانت هواجسى تحوم حول عقلى تبدد تركيزه ..تركنى مودعاً .. عاودتنى لحظات السعادة .. تركت نفسى للحظة ورحت فى نوم عميق واستسلمت للواقع الحلم ..

استيقظت على وقع الأقدام المتداخلة ، الليل قد بسط نفوذه والكهرباء لاتزال معطلة والشموع يصفعها الهواء المتسرب من النوافذ المتهالكة ..

طمأنت نفسى .. فقد مضى الخوف إلى الأبد حيث لاعودة .. الأصوات المتداخلة تتزايد والحركة لاتتوقف .. تبدو الأشباح أمام عينى .. تتمايل ، تعدو ..تقفز .. تحكم حصارها حولى .. وأنا لازلت أقاوم فكرة الخوف .

صرخ أحدهم :

- اخلعى قرطك الذهبى ..

فقلت :

- اخلعى أساورك وحليّك ..

فعلت ، اخلعى .. اخلعى .. فعلت ..

أحسست أننى أتجرد من حيائى .. استجمعت قواى .. التقطت

" ولاعتى " .. ضغطت بقوة .. أنارت من حولى .. رأيته يتجرد هو الأخر ، كاشفاً القناع الذى علا وجهه .. تذكرت كلمته .. الخداع ..

أحسست بأننى أصبحت صيداً سهلاً .. نظرت إلى ماتبقى من ثيابى .. قليل .. وإلى ماتبقى من "ولاعتى" وجدته كثيراً .. نظرت إليه وجدته عارياً .. وفى لمح البصر أشعلت نفسى وارتقيت فى أحضانه متشبثاً به ..

تحاول غزو وجهي

كانت جدتى تعرف الطريقة الأسرع للسيطرة علينا ، وكنا لانعص لها أمراً فهى تملك الحكايات التى نحبها ونهواها ، ولديها قدرة فائقة على اجتذاب قلوبنا قبل أسماعنا ، منها تعلمت قصص" أبوزيد الهلالى" و"الأميرة ذات الهمة" و"الشاطر حسن" "وسيف بن زى يزن" ومنها تعلمت السيرة النبوية وقصص الصالحين ..

كانت تحكى بقدر حاجتها إلينا .. لم ندع لحشائش الزرع مجالاً للحياة كنا معها لانشعر بالتعب ولانشعر بحرارة الجو أو برودته ، فقط كل مانريده منها المزيد والمزيد ..

وعندما كانت تشعر بالتعب .. أحاول إعادة الكلمات التى طافت فى ذاكرتى والجميع من حولى ينجذبون نحوى شيئاً فشيئاً .. كلماتى قد تشكل حكاية سمعوها من جدتى وقد تشكل شيئاً آخر قد يتماس فى جزء مع ماسمعوه فتمسح جدتى على رأسى وتقبلنى وترتسم ابتسامة على شفتيها قائلة : حكايات جميلة .. والله جميلة ..

أستمر فى محاولاتى حتى يأخذنى النوم .

* *

المسافة بين البيت والمدرسة تزيد عن كيلومترين بقليل ، أتحرك برفقة زملائى مخترقين الشبورة فى الصباح طالقاً حكاياتى فى فضاء الطريق مجتذباً الأسماع ، أستعذب نداءهم لى : قل يا "ضوى" ..

ثم أعود لنفسى ياليتنى نصف عم سيد الضوى أو حتى ربع عم

جابر وأستبعد عنى فكرة التشابه والتماثل ..

مدرس اللغة العربية انبهر عندما قرأ موضوع التعبير الذى كتبتة ، لم يمض إلى بيته حتى زار جدتى وأقسم لها أن هذا الموضوع لايكتبه إلا طالب كبير ، ولولا أنه جمع الكراسات داخل الفصل وأثناء الحصة ماصدق أننى الذى كتبته .. ابتسمت جدتى وراحت تمسح على شعرى وهى تقول للمدرس فى فخار : أليس حفيدى ؟ .

ابتسم المدرس مودعاً بنظرة حانية ..

**

فى صباح اليوم التالى أصر الإخصائى على مقابلتى وعندئذ أخبرنى بالمسابقات ، رحبت بالفكرة وانصرفت إلى فصلى ..

أمسكت ورقة بيضاء وأخذت فى الكتابة حتى أتممتها خمساً ولم تمض الفسحة حتى سلمتها إليه ، قرأت دهشة فى عينيه وطلب منى أن أتمهل .. فاعتذرت .. ثم راح يبص فى سطور الأوراق لم يشغله شئ عنها .. ربت على كتفى وأصر على مكافأتى ..

* *

عدت من حفل توزيع الجوائز تطوف كلمات تلك الرجل الذى أعطانى مجموعة من الكتب عليها توقيعه .. عقلى واجتاحت التساؤلات آفاقى هل أنا فعلاً مثلما قال ؟ .. لقد كتب فوق توقيعه إلى الصديق المبدع ثم كتب يوسف إدريس .. من ياترى هذا الرجل ؟ ولماذا أهدانى أنا بالذات هذه الكتب ؟ .

أعطيت أبى شهادات الاستثمار ولوَّحت إلى جدتى بشهادة التقدير وانصرفت إلى غرفتى التى هى فى الواقع غرفة جميع إخوتى ، جميعهم ينام .. لم أنم حتى أتممت قراءة أحد كتبه ، أحسست بتفاهة ماأكتبه ، أقسمت بأنه أفضل من جدتى ، وقد كنت أظنها أفضل من ينسج الحكايات ، ورغم عدم فهمى لكل ماقرأته إلا أننى أحسست بعذوبته وروعته ، كانت الديوك قد أطلت بأعناقها تصيح جالبة معها صباح اليوم الجديد ، وكنت قد أعددت العدة لمدرس اللغة العربية لمعرفة المزيد عن صديقى الكبير .

* *

لقد تعبت جدتى من كثرة محاولاتها فى إثناء أبى عن اصطحابى

إلى الموالد فألوذ إلى أمى التى تستلم مع أول كلمة لأبى .

لم يعد لدى وقت للمدرسة ولا القراءة ، أحاول البقاء مدعياً المرض .. دون جدوى أصرخ فى البيت كله عدا أبى .. منذ متى ونحن صبيتة موالد .. ؟

تهدهدنى أمى قائلة : لقمة العيش مرة يابنى .. استحمل مع أبيك ثم تنتزع جدتى كلمة من فمها .. صاحب الفرج موجود .. أنسحب إلى غرفتى أحاول القراءة وأداعب فى ذاكرتى كلمات صديقى الكبير ، تلوح فى سماء عينى دمعة حارة ، لم أشعر بأبى الذى اتجه ناحيتى .. صارخاً فىَّ .. ماسكاً الكتب التى بين يدى .. قائلاً : هذه الكتب التى ستنغص علينا أرزاقنا .. وراح يقذف بها واحداً تلو الآخر إلى أرضية الحجرة ، أسرعت نحوه تنهره آخذة فى ململة مابعثره .

تبعثر كل شئ داخلى ، أقسمت لأمى أننى ماعدت أحبه وأننى عندما أكبر لن يستطيع السيطرة على حياتى .. تمسح على رأسى قائلة : مهما كان من أمر فهو أباك ..

أحاول الحديث إلى الإخصائى الاجتماعى ومدرس اللغة العربية الذين تعبوا من المحاولات مع أبى .. فى كل مرة يعودون صفر

اليدين .. إلا من قصة أو مجموعة قصص أكتبها ليقرأوها .. نلتقى دائماً فى الموالد ..

* *

الرسالة التى تسلمها أبى تشى بأنها من المدرسة ..رمى بها فى ركن الصالة قائلاً : مفصول .. مفصول ..

وقعت الكلمة كرصاصة اخترقت جدران قلبى .. سعيت إلى الرسالة أكاد لاأتمالك نفسى .. فتحتها .. قرأت مابها .. سرت الدماء فى عروقى ثانية ، ورحت أدارى بسمة تحاول غزو وجهى .. وأنا أنظر إليه بعينى هاتين .. متمتماً .. لقد أنستنى بفعلتك هذه أنك أمّى لاتقرأ ولاتكتب .. منسحباً إلى خارج الدار .

* *

لم أعلم شيئاً عن الجائزة .. إنها أضعاف مايحلم به أبى من تطواف الموالد ، القاعة لم أر لها مثيلاً ، وكيف لى أن أرى مثلها .. وأنا هنا .. ك حيث البيوت الواطئة التى يعرشها القش والحطب وجذوع النخل .. إن أقرب طريق ممهد يبعد عن دارنا

أكثر من كيلو مترين .. لم أر مثلها منذ خرجت حتى دخلت إلى هذه القاعة ..

لم أكن الوحيد الذى انبهر بالمكان فأبى وأستاذى ظلا مشدوهين..

أحتضن كتب صديقى الكبير .. والقاعة قاربت على لفظ الحاضرين ولم يعد هناك موضع لقدم .. إلا من الطرقة الرئيسية يبدو أنه للحفاظ على الشكل العام ..

أعلن أحدهم بقدوم كبار الضيوف ، التفت بوجهى مترقباً رؤيتهم ، فى الواقع لم أر مثلهم من قبل .. وكيف يكون .. ؟

انتفضت من مكانى عندما رأيته ، تحركت من مكانى وأنا أحتضنه بين ذراعى ، ارتميت فى أحضانه ، راح يحدق فىَّ ماسحاً على رأسى بينما تساقطت الكتب من حضنى وراحت عينى تترك دموعها .

تحولت العيون لتراقبنا ، التقطنا الكتب التى تناثرت ، لامنى عندما رأى كتبه بحالة سيئة .. أشرت إلى والدى .. فهم .. بينما ظلت عينا أبى متجهتان نحو الأرض ، كان صاحبى الكبير قد أخذنى من يدى وطلب منى الجلوس إلى جواره ..

قصص قصيرة جداً

(١) ارتطام

تجلس فى وقار مرتدية أبهى الثياب تنظر فى كبرياء ، تجذب نظراته ، اقترب منها ، حدق ببصره ، تساءل : هل توجد امرأة بهذا الجمال ؟!.. تسربت الحسرة إلى قلبه وهو يتذكر سنواته العجاف .. حدث نفسه : لابد من الاستقرار بالقرب منها .. كفانى حرمانا .. اقترب منها أكثر مغازلاً إياها بكلمات تلقائية، تنظر إليه ودون أن تنبس ببنت شفة ، خيل له أنها أومأت إليه ، فهم مسرعاً إليها .. ولكن سرعان ما إرتطم بالحائط الزجاجى ، وجل ، دلك جبهته ، نظر إلى الأرض سمع صوتاً نسائياً رقيقاً من اتجاه آخر : أرجوك خد بالك من الزجاج المرة القادمة !

(٢) براءة

اعتاد منها أن تحمله ، تسير به فى رفق ، لايكف عن الثرثرة معها ، تنصت إليه ، كانت تحمله يوماً .. أحست ببعض التعب، توقفت .. طلب منها السير ، سارت به بضع خطوات ومازال يثرثر ، توقفت ثانية أعاد طلبه، لم تجبه، فقدت شهيتها للمشى ، كرر طلبه مازالت على حالها .. ظن أنه أثقل عليها بثرثرته ، أبدى أسفه راحت تدور حول نفسها ، توقفت عن الدوران ، تمايلت به ببطء نحو الأرض ، وضعته .. راحت تتلوى .. نظر إليها ، أشفق عليها ، نظرت هى الأخرى إليه تودعه ، تشنجت ، لفظت أنفاسها الأخيرة ، صرخ ، إقترب والده مسح على رأسه ، ارتمى فى حضنه ، التقت عيونهما ، أحس والده بمعاناته ، هون عليه قائلاً :

هى دى الدنيا . ربنا يعوض علينا .. بكره نشترى حمارة غيرها .

(٣) أصدر أحدهم صوتا

اغرورقت عيناه من الضحك ، حاول بكل قوة إعادة الشفة العليا لتنطبق على الدنيا ، دون جدوى .. ضحكاته تمزق صمت الفضاء ، العيون مندهشة ، تغزوها التساؤلات ..

نظر إليهم .. لَمَّ شفتيه ، مازال يصدر صوتاً من أنفه ، راقب عيونهم لم يستطع إطباق شفتيه طويلاً .. فتباعدتا أكثر ، ودفع برأسه إلى الوراء نظر بعضهم إلى بعض ، أصدر أحدهم صوتاً من أنفه .. تبعه الآخرون .. الصخب دار المكان ..

حدق فيهم .. لَمَّ شفتيه بسرعة .. توقف .. توقفوا .. عاد .. عادوا .. بكى ورمى بنفسه من القطار ٠

(٤) ثقب

لم يكن يؤمن سوى بها ، مجرد إيماءة منها يمتثل ، والدار محكمة النوافذ ، بات هو الأحوط على إحكام غلقها ، جلست فوق الكنبة العتيقة تنقب فى ثقب فعله الزمن .. يتسع بمرور الوقت ، تجلس فوقه .. تواريه .. يحتويها .. تتلاشى .. كانت تؤكد له ضرورة عدم وجود ثقوب ، لم يفطن إلى ثقب المفرش ، جلس يحدق من بعيد وهى تتلاشى .. رائحة نفاذه تملأ المكان .. يكاد يختنق .. هب محاولاً فتح النوافذ .. لم يستطع ، كانت قد أخذت معها كل المفاتيح .. أخذ يسب ويلعن .. والرائحة تغزوه كان قد نسى كل ماآمن به ٠

(٥)

اختمرت فكرة الموت فى عقلى فتشبثت البقاء

(٦)

فـى ممـرات الحيـاة يهـدل الحمـام وتغـرد البلابـل وتنعـق الغربـان
وتزأر الأسود وأظل أنا المسخ الوحيد

(٧)

يضعون قرص الدواء فى فمى لعله يشفينى ، أرواغه فى فمـى ..
أنظر فـى عيـونهم ، أدرك سـأمهم ، أتحمـل مرارتـه لأؤجـل فكـرة
التقسيم

المؤلف في سطور :

- محمود ابراهيم الديدامونى
- قاص وروائى
- المؤلفات :
- الشمس تشهد والقمر (شعر)
- أترانى أحيا حقًّا (قصص)
- قيد الطبع :
- واسمه المستحيل (رواية)
- كان فى عينيَّ حلمٌ (شعر)
- ينزف منفرداً (قصص)
- الجوائز :
- جائزة الشعر من وزارة الشباب
- جائزة الشعر من جماعة الأدب العربى
- جائزة القصة القصيرة عن مجموعة (ليست كغيرها) الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤

المحتــــوي

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٥ / ١٠٨٧٣

دار الإسلام للطباعة والنشر
٢٢٥٠٤٥٣ / ٠٥٠ ـ ٠١٢٢٦١٤٣٦٣